"أدريان بروست"

ليس له رحلة إلى الحجاز!

د. محمد خير البقاعي
قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

يمكن القول: إن كتب الرحلات التي جاب أصحابها الجزيرة العربية في أزمنة متعددة، وظروف مختلفة يكمل بعضها بعضًا، ويشرح بعضها ما خفي في بعضها الآخر. وليس لباحث أن يقطع في أمر إشكالي، إنْ لم يستعرض ظروفه وملابساته في الرحلات الأخرى، أو الكتب الأخرى التي يمكن أن يكون الرحالة قد اقتبس منها. ونقف اليوم أمام حالة من هذا النوع، فنرى أن رحلة من رحلات أحد الفرنسيين إلى الحجاز توضح ملابسات قضية شغلت الباحثين، وجعلتهم في حيرة إزاء وجود واحد من أهم الكتب التي عرضت للجانب الصحي في موسم الحج. إذن لنعرض للقضية من بداياتها الأولى؛ لنرى مصداق ما ذكرناه في هذا التقديم.

نشر الدكتور سهيل صابان في مجلة "الفيصل"(١) مقالة بعنوان: "رحلة بروست(٢) إلى الحجاز عام ١٨٩٣م"، ويتحدث الدكتور صابان

---

(١) العدد ٢٧٠، ذو الحجة ١٤١٩هـ/أبريل (نيسان) ١٩٩٩م، ص ١٢٢-١٢٨.

(٢) (Achille-Adrien Proust) أخيل - أدريان بروست: وجدت له ترجمة مقتضبة في معجم لاروس القرن العشرين، ج٥، ص ٨٢٠، وفيها أنه طبيب فرنسي، ولد في منطقة الأور - لوار Eure-Loir في عام ١٨٣٤م، وتوفي في باريس عام ١٩٠٣م، وعمل طبيبًا في مستشفيات باريس حتى عام ١٨٧٧م، ثم مدرسًا للعناية بالصحة العامة حتى عام ١٨٨٥م، وكان منذ عام ١٨٧٩م عضوًا في المجمع الطبي الفرنسي، ونشر كتبًا عدة في مجال الأوبئة والصحة العامة والخاصة.

في هذه المقالة عن مخطوطة من مقتنيات مكتبة جامعة إستانبول، رقم (٤٦٣١)، ص٢٠٠ . وهي كما يقول: "ترجمة القسم الخاص بالوضع الصحي في الحجاز من الكتاب الفرنسي الذي يقع في حدود (٤٠٠) صفحة حسبما يذكر المترجم أحمد نرمي، وهو أحد المترجمين العاملين في دار الترجمة التي كانت تقوم بالترجمة للسلطان عبدالحميد الثاني، وقد ألفه الرحالة الفرنسي بروست الذي قام برحلة إلى الحجاز في موسم حج عام ١٨٩٣م (١٣١٠هـ). تقع المخطوطة العثمانية للكتاب في (٢٠٠) صفحة من القطع المتوسط، ورقمها في مكتبة جامعة إستانبول (٤٦٣١)، وهي مكتوبة بخط الرقعة، ومقروءة لمن يلم بقراءة الوثائق العثمانية، ويوجد في مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض نسخة منها مصورة على ميكروفيلم، ضمن المجموعة التي صُوِّرت من مكتبة جامعة إستانبول".

ويذكر الدكتور صابان أنه بحث عن كتاب بروست في فهارس الكتب الفرنسية، وفي مكتبة الكونجرس الأمريكية دون أن يجد له أثرًا. وعندما كتب للمكتبة الوطنية الفرنسية لمعرفة مكان المخطوطة - إن كان هناك مخطوطة بهذا الاسم - أحالته المكتبة إلى الأستاذ فرانسوا مورو (François Moureau)، الأستاذ في جامعة السوربون، ومدير مجموعة البحث حول أدب الرحلات، ويذكر الدكتور صابان أنهم كاتبوه، فجاء رده مقرونًا بتعريف لمؤلف الكتاب على النحو الآتي: "الدكتور أدريان بروست (Adrien Proust) هو والد أديبنا الفرنسي المشهور مارسيل بروست (Marcel Proust) (١٨٧١-١٩٢٢م) صاحب الرواية المشهورة "في البحث عن الزمن الضائع" (a'la recherche du temps perdu)، والدكتور بروست طبيب صحة عامة، متخصص في البحث عن أسباب انتشار الأوبئة، وقد أُرْسِل في مناسبات عدة إلى المشرق في بعثات مراقبة صحية، من أجل أن يحدد طرق وصول الأوبئة، ويقترح وسائل تحدُّ من انتشارها انتشارًا واسعًا، وقد كان مبعوث فرنسا في المؤتمرات الصحية الدولية

التي انعقدت في كل من فيينا (عام ١٨٧٤م)، وروما (عام ١٨٨٥م) والبندقية (عامي ١٨٩٢ و ١٨٩٧م)، وباريس (عام ١٨٩٤م)(٣). (...) وإثر إقامته في الجزيرة العربية عام ١٨٩٣م نشر مقالة في مجلة "العالَمَيْن" (Les deux Mondes) في ١٥ مايو (أيار) ١٨٩٥م وعنوانها "الحج إلى مكة وانتشار الأوبئة"(٤). وذكر مورو في رسالته للدكتور صابان أن ترجمة بروست موجودة في كتاب كلود فرنسيس (Claude Francis)، وفرناند غونتييه (Fernande Gontier) "بروست وآله"، (Proust et les siens) الذي نشرته دار النشر "بلون" (Plon) في باريس عام١٩٨١م، ص٤٧ وما يليها. وذكر الدكتور صابان أن الترجمة لا تشير إلى الكتاب الذي ألفه بروست، ولا تذكر سوى المقال المشار إليه عن "الحج إلى مكة وانتشار الأوبئة".

ثم يتحدث الدكتور صابان عن منهج المؤلف في الكتاب من خلال الترجمة العثمانية، ويعرض بإيجاز لمحتوى الكتاب الذي يبتدئ بالتعريف بجدة، فيصف منازلها وعدد سكانها، ثم يتحدث عن مياهها، والأمراض الناتجة عنها، وعن البحر الأحمر وحركة الملاحة فيه، وعن لباس الأهالي، وبعض المظاهر الاجتماعية.

---

(٣) له من الكتب عدا المقالة التي يأتي ذكرها في الحاشية الآتية:

- إجراءات أوروبا الدفاعية ضد الكوليرا، باريس، ماسون، ١٨٩٢م

La Défense de l'Europe contre le choléra (Paris, Masson, 1892)

- إجراءات أوروبا الدفاعية ضد الطاعون، باريس، ماسون، ١٨٩٧م.

La Défense de l'Europe contre le peste (Paris, Masson, 1897).

وأشكر للدكتور سهيل صابان أنه زودني بنسخة من رسالة الدكتور مورو.

(٤) عنوانها بالفرنسية:

LE PELERINAGE DE LA MECQUE ET LA PROPAGATION DES E'PIDE'MIES.

REVUE DES DEUX MONDES, LXV ANNÉE-QITRI_ME PÉRIODE, TOME CENT VINGT-NEUVI_ME, PARIS 1895, PP.368-393.

وقد ترجمناها وظهرت في مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، المجلد الثامن، العدد الأول، المحرم - جمادى الآخرة ١٤٢٣هـ/ مارس - أغسطس ٢٠٠٢م، ص ٢٢١ - ٢٥٥. وظهر لنا بالمقارنة بين المقالة وبين ما ينقله كورتلمون عن كتاب بروست أن المقالة تلخيص لأهم ما ورد في أحد فصول الكتاب الذي ظهر بعد نشر المقالة.

وفي المبحث الثاني يتحدث عن مكة المكرمة: جغرافيتها، وطقسها، وعدد سكانها، ومساكنها، وعن التجارة والصناعة فيها، ثم يصف الحرم المكي الشريف.

وفي المبحث الثالث يتحدث عن الأوضاع الصحية في الحجاز، فيذكر الأمراض الوبائية فيه، وعن المحاجر وأعمال اللجنة الصحية العثمانية فيه، وعن الرعاية الصحية في السفن، ويعرض لتقرير الدكتور أرنست عن الوضع الصحي في الحجاز.

وفي المبحث الرابع يتحدث عن الوضع الإداري في الحجاز، فيصف العلاقة بين الشريف والوالي.

وفي المبحث الخامس تحدث بروست عن رحلات الغربيين ومصادر معلوماتهم عن الحجاز، وختم بذكر بعض المعلومات الإحصائية. ويسرد الدكتور صابان في نهاية مقاله بعض المآخذ على رحلة الدكتور بروست(٥).

---

(٥) تحدث الدكتور صابان مرة أخرى عن ترجمة كتاب بروست إلى اللغة التركية، وعن مخطوطة الترجمة في مقالته "الجزيرة العربية في أعمال مؤلِّفَيْن عثمانيين مع ترجمتهما"، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج ٦، ع٢، رجب - ذو الحجة ١٤٢١هـ/ أكتوبر ٢٠٠٠- مارس ٢٠٠١م، ص ٢٢٥، قال: "... ومنها المخطوطات الخاصة عن بعض مناطق الجزيرة العربية، كالتي تتناول أوضاع الحجاز والحجاج، مثل كتاب الرحالة الفرنسي" بروست" بعنوان: حجات (الصحيح: حجج) الحجاز (حجاز حجلري). وهذا الكتاب المكتوب باللغة الفرنسية ويقع في حوالي ٤٠٠ صفحة من القطع المتوسط - حسب ما جاء على غلاف المخطوطة العثمانية المترجمة من بعض أبواب الكتاب المذكور - توجد نسخة منها في مكتبة جامعة إستانبول تحت رقم (ت ٤٦٣١) وتقع في ٢٠٠ صفحة، وقد ترجمها (أحمد نرمي) إلى اللغة التركية، ويظهر أنها قدِّمت للسلطان عبد الحميد الثاني أيضًا. وأحال في الحاشية رقم (٤، ص ٢٣٦) إلى مقالة الفيصل الموثقة سابقًا، وذكر في الحاشية (٥، ص ٢٣٦) كلامًا فيه لبس، يفهم منه أن للكتاب الفرنسي نسخة مصورة في مكتبة الملك فهد الوطنية، ولما سألت الدكتور صابان عن ذلك أجاب بأن هذا غير صحيح، والموجود في مكتبة الملك فهد الوطنية هو نسخة مصورة من مخطوطة الترجمة التركية؛ وانظر كتاب: الحجر الصحي في الحجاز، ١٨٦٥-١٩١٤م، ترجمه عن التركية عبدالرزاق بركات، وراجعه مسعد الشامان، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م؛ ومراجعتنا لهذا الكتاب ستظهر في مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية الرياض، مج ٨، العدد الثاني، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

ليس من شك في أن الجهد الذي بذله الدكتور صابان لا يمكن أن يقدره إلا من عانى صعوبة البحث في عالم ما كتبه الآخرون عن الجزيرة العربية عمومًا، وما كتبه الفرنسيون عنها على وجه الخصوص؛ لأن الكتابات الفرنسية عن الجزيرة العربية لم تلق اهتمام الباحثين العرب كما أشرت إلى ذلك غير مرة، وفي غير موضع(٦).

ولم يعثر الدكتور صابان على كتاب بروست؛ لأنه لم يهتدِ إلى عنوانه الصحيح، ولأن الكتاب ليس رحلة، والرجل لم يكن رحَّالة، وإنما كان طبيبًا، مثَّل فرنسا في البعثة الطبية الفرنسية في السويس، وهي بعثة تشرف على المحاجر الصحية؛ لأن لفرنسا مواطنين مسلمين في المغرب العربي، كما مثلها في أكثر من مؤتمر صحي كما جاء في ترجمته التي ذكرها الدكتور صابان. وقد ذكر لنا عنوان كتاب بروست الصحيح، وحدثنا عن مضمونه، ونقل عنه صراحة الرحالة الفرنسي (GERVAIS COURTELLEMONT) جرفيه كورتلمون(٧) (١٨٣٦-١٩٣٠م) في كتابه: (MON VOYAGE A LA MECQUE)

---

(٦) انظر بحثنا: "موسوعة الملك عبد العزيز آل سعود، سيرته وفترة حكمه في الوثائق الأجنبية"، مجلة عالم الكتب السعودية، مج٢٠، ع٥-٦، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٥٥٦-٥٧٢، وانظر أيضًا بحثنا: "موسوعة الملك عبدالعزيز آل سعود، سيرته وفترة حكمه في الوثائق الأجنبية، مصدر من مصادر التأريخ لحج شمال إفريقيا"، مجلة التوباد، ع٢٠، ذو الحجة ١٤٢٠م، وانظر بحثنا: "قراءة في رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عنوانها: إقامة في رحاب الشريف الأكبر - شريف مكة المكرمة" تأليف شارل ديدييه، مجلة الدرعية، السنة الثانية، ع٨، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م. وانظر: تقديمنا للرحلة المذكورة بترجمتنا، ط. دار الفيصل الثقافية، الرياض، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م (نشرت بعنوان: رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، ١٨٥٤م).

(٧) انظر بشأنه كتاب (بدّول)، الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ترجمة. د. عبدالله آدم نصيَف، الرياض، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص ١١٧-١١٨؛ وكتاب: جرفية كورتلمون: رائد تصوير الحجرة النبوية التي تضم قبره الطاهر: تأليف، غي كورتلمون Guy courtellemont, Le Pionnier photographe de Mahomet نشر دار سي. لاكور c.lacour, Nime ، نيم، فرنسا، ١٩٩٤م.

وأشار إلى هذه الرحلة الدكتور فهد بن عبد الله السماري في كتابه: بيبلوجرافيا المملكة العربية السعودية في عهد الملك عبد العزيز، دار أراكان، ١٤٠٤هـ/١٩٩٣م، ص ١٩٠.

"رحلتي إلى مكة المكرمة"(٨) .

إذن، ما عنوان كتاب بروست ؟ إنه: الاتجاه الجديد للسياسة الصحية (L'Orientation nouvelle de la politique sanitaire) ذكر كورتلمون هذا الكتاب في الملحق الذي وضعه في آخر رحلته (الطبعة الأولى، ص٢١٧-٢٣٣)، ونقدم فيما يأتي ترجمة لهذا الملحق الذي يعطي فكرة واضحة عن كتاب بروست الذي أظن أننا سنجده في قوائم الكتب الفرنسية(٩) بعد الآن. ويبدو أن الكتاب طبع عام ١٨٩٥م، كما ذكر ذلك المترجم التركي، ونقل ذلك عنه الدكتور صابان في حواشي مقالته المنشورة في مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، ناهيك عن أن كورتلمون يصف كتاب بروست، فيقول: "إنه صدر حديثًا"(١٠). وبمقارنة ما ذكره الدكتور صابان عن كتاب بروست - اعتمادًا على الترجمة العثمانية - مع ما جاء في ملحق رحلة كورتلمون، يتضح لنا أن الكتاب المقصود هو - بلا ريب - الكتاب الذي ذكرنا عنوانه؛ يقول كورتلمون (ص٢١٧- ٢١٨) من النص الفرنسي: "وهو كتاب قام مؤلفه

---

(٨) تم نشر هذا الكتاب في عام ١٨٩٦م، وقد نشرته في باريس مكتبة هاشيت وشركائه librairie Hachette Et Cie ، ثم نشر في سلسلة ديوان التي يشرف عليها سليمان زيغيدور في دار النشر ديكلي دو بروير des Clée De Brouwer ، ١٩٩٠م، باريس. وهذه النشرة مسبوقة بتقديم كتبه غي كورتلمون guy Courtellemont تحدث فيه عن الرحلة، وملابساتها.

(٩) وقد وجدناه فعلاً في الكتب المحفوظة في المكتبة الوطنية في باريس، وطلبت تصويره دارة الملك عبدالعزيز، انظر الحاشية الآتية.

(١٠) يقول الدكتور صابان في الحاشية (٥) من المقالة الموثقة سابقًا: "طبع الكتاب في فرنسا عام ١٨٩٥م باللغة الفرنسية...". ولما سألته عن مصدر المعلومة أجابني مشكورًا أنه الترجمة التركية. والصواب أن الكتاب نُشر عام ١٨٩٦م (١٣١٣هـ)، وهو في ٤٥٦ صفحة مع صور وخرائط، انظر: كتالوج الكتب المطبوعة الموجودة في المكتبة الوطنية الفرنسية، مج ١٤٣، باريس المطبعة الوطنية، ١٩٣٧م، العمود ٤٥١. وقد ورد العنوان كالتالي:

L'Orientation nouvelle de la politique sanitaire, par le professeur Proust,...Conférences sanitaires internationales (Venise, Dresde, Paris). Règlement de police sanitaire maritime de 1896...-Paris, Masson, 1896. In-8, XII-456 p., fig. Et carte.

بوصف الأوبئة الرئيسة، ومصادرها، وأسبابها، ووجد نفسه - وهو يفعل ذلك - مدفوعًا إلى تخصيص فصل طويل عن الحج، أحاط فيه بكل ما قاله وكتبه أسلافي وأنا نفسي، عن المدينة المقدسة". أقف عند قوله: "وأنا نفسي" لأجد أن الدكتور صابان يذكر في (ص ١٢٨) أن بروست تحدث عن الرحالة الغربيين الذين توجهوا إلى الحجاز، وكتبوا رحلاتهم... ثم يذكر رحلة بوركهارت، وبرتون، ومورسلي، وسنوك هورخرونيه، وليون روش، ورحلة كورتلمون (الذي تصحف في مقالة الدكتور صابان إلى فورتلمون) الذي قام برحلته عام ١٨٩٤م (١٣١٠هـ)، والأدلة على ذلك كثيرة. ونقدم فيما يأتي ترجمة لهذا الملحق الذي يبدو أن كورتلمون اعتمد فيه اعتمادًا كليًا على كتاب بروست.

/٢١٧/ ملحق(١١)

يضم هذا الكتاب قصة رحلتي التي سجلتها بكل ما تحمله من صدق الذكرى الواضحة، وليس فيه إلا أمران: انطباعاتي الشخصية لكوني رحالة، والأحداث التي واجهتها في طريقي.

وأرى من المفيد الآن أن أُكمل هذا الكتاب بملحق يضيف إلى المعلومات التي سجلتها عن مكة المكرمة، ما هو معروف سابقًا، وأن أجمع الوثائق المهمة المتفرقة في الكتب المختلفة التي عالجت القضية، لكي يكون القارئ عند إنهاء هذا الكتاب مُلِمًّا كل الإلمام بما نعرفه

---

(١١) الترجمة عن الطبعة الأولى، الموثقة في المتن، وقد أثبتنا أرقام صفحات الأصل الفرنسي بين عضاضتين/ / لتسهل المراجعة والمقارنة بين الترجمة والنص الأصلي. ووضعنا الاقتباسات التي اقتبسها كورتلمون عن بروست بين هلالين صغيرين كما فعل المؤلف، وسبقنا الهلالين بقوسين كبيرين لأن الفصل بتمامه يبدو مقتبسًا من هذا الكتاب، ويعطي فكرة تامة عنه. وقد ترجم رحلة كورتلمون كاملة الدكتور معجب الزهراني، وستظهر قريبًا. ولنا بحث ترجمنا فيه ما كتبه غي كورتلمون عن جرفيه كورتلمون وملابسات رحلته، وتحدثنا عن الرحلة، وترجمنا مقاطع طويلة منها؛ نُشر في مجلة "العرب" على قسمين: الأول في ج ٧ و ٨ س ٣٧ محرم و صفر ١٤٢٣هـ/ نيسان - أيار/ أبريل- مايو ٢٠٠٢م، ص ٣٤٢ - ٣٦١؛ والثاني في ج ٩ و ١٠ س ٣٧ - الربيعان ١٤٢٣هـ/حزيران - تموز/يونيه - يوليو ٢٠٠٢م، ص ٤٤١ - ٤٦٢. وقد علقت على بعض مواضع الترجمة طلبًا لمزيد من الإيضاح، وميزت حواشي المؤلف بوضع كلمة (المؤلف) بعدها.

اليوم عن هذا الجزء من الجزيرة العربية الذي ما زال سرًا غامضًا كل الغموض.

لقد ساعدني في إتمام هذا الملحق كتاب الدكتور بروست (Proust) الذي صدر حديثًا، وعنوانه "الاتجاه الجديد للسياسة الصحية"؛ وهو كتاب قام مؤلفه بوصف الأوبئة الرئيسة/٢١٨/، ومصادرها، وأسبابها، ووجد نفسه[١٢] - وهو يفعل ذلك - مدفوعًا إلى تخصيص فصل طويل عن الحج. أحاط بروست في هذا الفصل بكل ما قاله وكتبه أسلافه وبما كتبته أنا نفسي، عن المدينة المقدسة. أما أسلافه المعروفون - أعني الذين أصدروا رحلاتهم في كتب - فهم:

- بوركهارت[١٣] (سويسري)؛ وهو أول من وصف المدينة المقدسة. وكان قد زارها في عام ١٨١٤م (١٢٢٩هـ).
- برتون[١٤] (بريطاني)؛ وهو ضابط في خدمة شركة الهند، قام

---

[١٢] يقول أدريان بروست في مقاله الموثق في الحاشية الرابعة من هذا البحث.
"ندين لهؤلاء الرحالة الشجعان بالمعلومات التي سنجدها بعدُ في هذه المقالة، والتي نُكمِلها بالتفصيلات التي جمعها السيد لوغران (Legrand) طبيب الصحة الفرنسي في السويس من هنا وهناك بين الحجاج".

[١٣] ترجم رحلة (جون لويس بوركهارت) إلى العربية الدكتور عبد العزيز بن صالح الهلابي وعبد الرحمن بن عبد الله الشيخ، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ/١٩٩٢م؛ وانظر ما ترجم له غير ذلك في مقالة عبد الرحمن فراج" أدب الرحلات إلى المملكة العربية السعودية" مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج٤، ع٢، رجب - ذو الحجة ١٤١٩هـ/نوفمبر (تشرين الثاني) - أبريل (نيسان) ١٩٩٩م، ص ٢٧٨ -٢٧٩؛ وانظر: الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، م. س.، ص ٤٤ -٥٣؛ وكتاب جاكلين بيرين، اكتشاف الجزيرة العربية، ترجمة قدري قلعجي، قدم له الشيخ حمد الجاسر رحمه الله، بيروت، دار الكتاب العربي، د. ت. ص ٢١٦ - ٢٢٩. وفيه أنه ولد عام ١٧٨٤م في لوزان (سويسرا) ، وتوفي عام ١٨١٧م. وانظر بحثنا "ناصر الدين دينيه وكتابه الحج إلى بيت الله الحرام، دراسة ووثائق وترجمة مختارة" مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج٧، ع١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

[١٤] ريتشارد فرانسيس برتون، ولد عام ١٨٢١م، وتوفي عام ١٨٩٠م، انظر كتاب (بدِول، م. س.)، ص ٥٤-٦٦. وترجم رحلته إلى العربية د. عبدالرحمن بن عبد الله الشَيخ، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج١، ١٩٩٤م، ج٢، ١٩٩٥م، ج٣ ١٩٩٥م. وانظر بحثنا: ناصر الدين دينيه وكتابه الحج إلى بيت الله الحرام، دراسة ووثائق وترجمة مختارة"، م. س.

برحلة استكشاف إلى الحجاز عام ١٨٥٣م، وشهد موسم الحج، وذهب إلى المدينة المنورة.

- ليون روش(١٥) (فرنسي)؛ كبير المترجمين في جيش إفريقيا، أرسله الماريشال بوجو(١٦) (Bugeaud) في مهمة لدى شريف مكة المكرمة عام ١٨٣٧م (١٢٥٣هـ)(١٧). وكانت فرنسا حينئذ في معمعة

---

(١٥) ليون روش، ولد في غرونوبل (فرنسا) في ٢٧ سبتمبر (أيلول) ١٨٠٩م، ورحل إلى الحجاز بين عامي ١٨٤١ - ١٨٤٢م، لم تترجم رحلته إلى العربية بعد، وعنوانها: اثنان وثلاثون عامًا في بلاد الإسلام (Trente Deux ans à travers L'Islam)، وهي مذكراته، وتقع في جزأين، يقع كل منهما في ٥٠٠ صفحة؛ تحدث في الجزء الأول عن أوضاع الجزائر وحياة الأمير عبد القادر، وفي الجزء الثاني عن مهمته في الحجاز، وحياة الماريشال بوجو، وتبدأ الرحلة منذ خروجه من الجزائر إلى تونس، ثم مصر، والحديث عن الحجاز يقع في الصفحات ٦١ - ١٤٩ من المجلد الثاني، وفيها صور تمثل الكعبة والحرم المكي والحرم المدني، والوقوف بعرفات، وطهارة الحجاج. وقد طبع الكتاب في باريس، مكتبة فيرمن - ديدو، مطبعة المعهد، ١٨٨٥م. عن بحث للدكتور بلقاسم سعد الله بعنوان: "رحلة ليون روش إلى الحجاز ١٨٤١-١٨٤٢م" قُدِّم إلى ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية التي نظمتها دارة الملك عبد العزيز، من ٢٤ - ٢٧ رجب ١٤٢١م/٢١ - ٢٤ أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠٠م. وذكر دينيه في كتابه: الحج إلى بيت الله الحرام أن ليون روش استقى كل ما في كتابه من كتاب بوركهارت، انظر بحثنا: "ناصر الدين دينيه وكتابه الحج إلى بيت الله الحرام، دراسة ووثائق وترجمة مختارة، م. س. وانظر: الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، روبن بدْول، ص ١١٠ - ١١٢. ويبدو أن وفاة روش كانت في بداية القرن العشرين؛ لأنهَ ذهب إلى الحجاز في عام ١٨٤١م حسب ما يذكر الدكتور بلقاسم سعد الله في بحثه السابق ذكره، وفي عام ١٨٣٧م كما يذكر كورتلمون، وحضر روش محاضرة عن رحلة كورتلمون في بوردو، ألقاها كورتلمون نفسه، ويصرح أن روش قال له: إنه خلال المحاضرة رحل بمخيلته من جديد إلى مكة المكرمة بعد سبعة وخمسين عامًا من ذهابه إليها. وهذا يعني أنه كان حيًا في عام ١٨٩٤م حسب رواية كورتلمون، وفي عام ١٨٩٩م حسب ما جاء في بحث الدكتور بلقاسم سعد الله، المذكور سابقًا. وهذا يعني أنه بلغ التسعين، وربما تجاوزها حسب الوصف الذي يورده كورتلمون عن وضعه الصحي.

(١٦) Thomas-Robert Bugeaud De La Piconnerie = توماس روبير بوجو دولا بيكونري: عسكري فرنسي ولد في ليموج عام ١٧٤٨م، ومات في باريس عام ١٨٤٩م. وطد دعائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر عندما أرسل إليها عام ١٨٣٦م، وعين حاكمًا عامًا للجزائر عام ١٨٤٠م.

(١٧) كذا في الأصل والصواب ١٨٤١م؛ وهي السنة التي أصبح فيها بوجو حاكمًا فرنسيًا على الجزائر، وقرر أن يكلف ليون روش بهذه المهمة التي تضعف =

الحرب الإفريقية المروعة التي لم تكن ذات فائدة للمسلمين؛ لأن مقاومتهم لم تكن مجدية أمام الإرادة الفرنسية الحازمة التي كانت تود استكمال غزوها للجزائر.

خطرت للماريشال فكرة، كان هدفها إنسانيًا راقيًا؛ لقد راهن /٢١٩/ على حكمة رجال الدين الإسلامي، وطلب منهم فتوى تحث المسلمين الجزائريين على الإعراض عن المقاومة غير المجدية، وقبول السيطرة الفرنسية، مقابل أن تتعهد فرنسا باحترام مؤسساتهم الدينية والقضائية. وقد نجح ليون روش نجاحًا باهرًا في هذه المهمة. لقد قابل الشريف الأكبر، ووقع منه الفتوى التي صاغها علماء القيروان، وصادق عليها علماء القاهرة، ثم ذيلها بتوقيع مجلس علماء مكة المكرمة.

كانت نتيجة كل ذلك باهرة، وأسهمت كل الإسهام في نشر السلام في الجزائر. لقد صان سلفي الشهير أرواح كثير من الفرنسيين الذين كانوا سيقتلون بدون طائل لولا مبادرته الناجحة.

كانت رحلته محفوفة بالمخاطر، فهو - على سبيل المثال - لم يستطع النجاة إلا بمعجزة حقيقية، حينما تعرف عليه في مكة المكرمة جزائريون، كان فيما مضى قد اشترك في إصدار الحكم عليهم، بصفته مترجمًا لدى السلطات الفرنسية، ثم أعلنوا على الملأ حقيقة أمره في عرفات، وفي لحظة حرجة هي لحظة الوضوء؛ إذ قام أحدهم بالتشهير به على رؤوس الأشهاد بين جماعة السكان الأصليين، فقُبض عليه، وكُمِّم، ثم حُمِل على ظهر جمل، ومُضِي به

= القوة الحربية للأمير عبد القادر، وتفت في عزيمة الجهاد لدى المسلمين. وتتمثل المهمة بصياغة فتوى شرعية تبيح لمسلمي الجزائر العيش تحت الحكم الفرنسي المسيحي، وعدم ضرورة اللجوء إلى الجهاد، ولكي تكون الفتوى فعالة وشرعية صيغت بالاتفاق مع بعض الفرق الصوفية والسلطات الفرنسية، وكانت مهمة روش أن يذيلها بموافقة علماء المسلمين عليها. انظر بحث الدكتور بلقاسم سعد الله الموثق سابقًا.

بسرعة كبيرة/٢٢٠/، وظن نفسه هالكًا لا محالة؛ ولكن حقيقة الأمر أنه قد أُنقِذ! لقد أنقذه الشريف الأكبر الذي أمر بمراقبة مبعوث الماريشال بوجو عن قرب دون أن يشعر، لكي يدفع عنه أي خطر يحدق به(١٨).

إن ليون روش اليوم، بعد أن تفانى في خدمة فرنسا خلال فترة عمله؛ إذ كان في فترات متتالية: وزيرًا مفوضًا في اليابان، وفي المغرب، حيث اضطلع بمهمات جليلة، ينعم بتقاعده بجدارة واستحقاق. إنه عجوز صلب العود، ما زال يتمتع بالنضارة، وتبدو عليه ملامح الرياضي. وقد شرفني بحضور المحاضرة التي ألقيتها في بوردو عن رحلتي. كانت عيناه مغرورقتين بالدموع لشدة تأثره حين سمعني أتحدث عن تفاصيل إقامتي في المدينة المقدسة؛ قال لي وهو يقبلني: "إنه خلال حديثي رحل بمخيلته مرة أخرى إلى مكة المكرمة بعد سبعة وخمسين عامًا على ذهابه إليها".

- سنوك هورخرونيه(١٩) (هولندي) طبيب منتدب من المكتب الصحي للهند الهولندية، أقام في المدينة المقدسة عددًا من السنين.

لقد كان يهتم بالإتنوغرافية (علم خصائص الشعوب)، وكان يعيش حياة مغرقة في المدنية. بيد أننا ندين له بمعلومات كثيرة /٢٢١/ دقيقة عن مكة المكرمة اليوم؛ لأن وجوده فيها يعود إلى عام ١٨٩٢م (١٣٠٩هـ).

---

(١٨) تحدث ليون روش عن مهمته بالتفصيل، وعرضها الدكتور بلقاسم سعد الله في بحثه الموثق سابقًا.

(١٩) تُرجم كتاب هورخرونيه إلى العربية بعنوان: صفحات من تاريخ مكة المكرمة، نقله إلى العربية د. علي عودة الشيوخ، وأعاد صياغته وعلق عليه، د. محمد محمود سرياني، ومعراج نواب ميرزا، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، مجلدان.

ونذكر بين الأوروبيين القلة الذين استطاعوا دخول مكة: والن (Wallin) ⁽٢٠⁾، وفون مالتزان (Von Maltzan)⁽٢١⁾، والدكتور مورسلي (Dr. Le Morsly)⁽٢٢⁾، والإسباني باديا (Badia)⁽٢٣⁾.

إن أصول الحج مغرقة في القدم، فقد كان موجودًا قبل بناء مدينة مكة المكرمة في القرن الخامس الميلادي، وكان قبل الإسلام يتضمن بقايا طقوس وثنية، لم يكن النبي ﷺ قادرًا على إلغائها، فخلصها من وثنيتها⁽٢٤⁾، وجعلها تتلاءم مع الإسلام⁽٢٥⁾.

---

(٢٠) جورج أوغسطس والن G. A. WALLIN: فنلندي ولد عام ١٨١١م، وتوفي عام ١٨٥٢م. وعنوان كتابه بالإنجليزية:
Narrative of a Journey from Cairo to Medina and Mecca by Suez, Araba, Tawila, al Jauf, Jubbe, Hail and Nejd, in 1845, read, April 1852, dan Journ. Of the Royal Geogr. Soc., XXIV, 1854, p. 115 - 207.

وانظر: الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ص ١٢٨ - ١٣٠.

(٢١) اسمه الكامل (H. Freiherr Von Maltzan) انظر: اكتشاف جزيرة العرب، خمسة قرون من المغامرة والعلم، لجاكلين بيرين، نقله إلى العربية قدري قلعجي، قدم له الشيخ حمد الجاسر، دار الكاتب العربي، بيروت، د. ت، ص ٤٠٠ وما بعدها. وقد دخل مكة المكرمة عام١٨٦٠م، انظر أيضًا: الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ص ١١٢ - ١١٣.

(٢٢) انظر: المقالة الفرنسية الموثقة في الحاشية رقم (٤) من هذا البحث.

(٢٣) دومنغو باديا أي لبليخ الرحالة الإسباني، الملقب علي بك العباسي، الذي جاء مكة المكرمة عام ١٨٠٧م، ونشر قصة سفراته في باريس عام ١٨١٤م، وفي لندن عام ١٨١٦م. انظر: اكتشاف جزيرة العرب، ص ١٨٤-١٨٥؛ وانظر: الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ص ٢٩ - ٣٤.

(٢٤) ذكر الدكتور صابان في مآخذه على كتاب بروست أنه يقول: إن الحج كان موجودًا قبل الإسلام بعدة قرون، وإنه من العادات الوثنية القديمة، وإن النبي ﷺ لم يسرع إلى إلغائها من حياة العرب. وإذا كان ما ينقله كورتلمون عن بروست صحيحًا، وأظنه كذلك، فإن المترجم التركي أساء فهم النص الفرنسي. قارن ما يقوله الدكتور صابان بما في النص السابق. وإن ما يؤخذ على بروست حقًا هو أنه - بصفته غير مسلم - يتحدث عن النبي ﷺ، وكأنه المشرع للحج، وهو لا يعلم أن ما يقوله وما يفعله النبي ﷺ إنْ هو إلا وحي يوحى. والحج عبادة توحيدية في الأصل ثم دخلت فيه طقوس وثنية فخلصه الإسلام الذي أوحي به إلى النبي محمد ﷺ، والحج قديم سابق للقرن الخامس الميلادي.

(٢٥) الاتجاه الجديد للسياسة الصحية، تأليف البروفيسور بروست (المؤلف). وانظر: المقالة الموثقة في الحاشية (٤) من هذ البحث.

ويؤكد العرب(٢٦) أن الأنبياء جميعًا حجوا إلى مكة المكرمة منذ إبراهيم الذي وضع قواعد الحج حتى المسيح، مرورًا بإسحاق ويعقوب وموسى عليهم السلام(٢٧). وهم أكثر تحديدًا عندما يتعلق الأمر بموسى عليه السلام؛ ولم يفت الشيخ عبود مفتي المذهب المالكي(٢٨) في مكة المكرمة الذي قص عليَّ في أحد الأيام قصة حياة موسى، لم يفته أن يفسر بهذه المناسبة ما جاء في التوراة من قولهم:

الأنبياء جميعًا حجوا إلى مكة المكرمة منذ إبراهيم حتى المسيح، مرورًا بإسحاق ويعقوب وموسى عليهم السلام

"تقديم القرابين في الصحراء" بقوله: "اعلم - يا ولدي - أن المقصود هو هدي مِنى، إذ كان فرعون لا يريد/٢٢٢/ السماح بالحج، ولكن العبرانيين هربوا من مصر، وعبروا البحر الأحمر بفضل المعجزة التي تعرفها، ثم شقوا طريقهم عبر الصحراء، وقدموا القرابين في منى، ثم اتجهوا شمالاً إلى بلادهم في يهودا".

---

(٢٦) يقصد المسلمين.

(٢٧) هذا هو الأصل؛ لأن إبراهيم - عليه السلام - أذن في الناس بالحج إلى يوم القيامة من مكة المكرمة، والأنبياء بعد إبراهيم هم أولى الناس بالاستجابة. بل ورد في الأحاديث النص على حج بعضهم مثل ما جاء في صحيح مسلم: كأني أنظر إلى موسى عليه السلام هابطًا من الثنية... الحديث، بل ورد في مسند أحمد أن يونس وهو قبل إبراهيم - عليهما السلام - قد حج، قال ﷺ، وهو يدعو في حجه: كأني أنظر إلى يونس بن متى على ناقة سمراء... أي حاجًا.

(٢٨) اسمه محمد عابد بن حسين مفتي المالكية بمكة المحمية كما يبدو في الرسالة المؤرخة في ٧ ربيع الثاني ١٢١٢هـ التي حملها كورتلمون من الشيخ عبود (اختصار محمد عابد) إلى الشيخ ابن زاكور مفتي المالكية في الجزائر. انظر نص الرسالة العربي وترجمته الفرنسية في رحلة كورتلمون (النص الفرنسي)، ص ١٥٢-١٥٣ .

ولد محمد عابد في عصر يوم الأحد من شهر رجب عام ١٢٧٥هـ في مكة المكرمة، فأحاطه والده الشيخ حسين برعايته، ورباه تربية إسلامية، نبغ في علوم الدين واللغة؛ مما أهله لتولي منصب الإفتاء بعد والده على مذهب الإمام مالك في الحرم المكي الشريف. نفاه الشريف عون إلى اليمن وظل متخفيًا حتى وفاة عون ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م. توفي محمد عابد عام ١٣٤١هـ/١٩٢٣م. انظر ترجمته في كتاب عمر عبدالجبار: سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر الهجري ط٢، جدة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م، ص ١٣٢-١٣٥.

إنها طريقة غريبة في تفسير العهد القديم، مع أن القرآن الكريم لا يشير إلى ذلك ألبتة، ولا يشير أيضًا إلى الرحلة التي يقال: إن المسيح - عليه السلام - قام بها إلى مكة المكرمة، وهي قصة سمعتها أول مرة في المدينة المقدسة. وإليكم الرواية الإسلامية، والتفسير الذي جاء في العهد القديم:

"بعد أن أكل آدم وحواء - عليهما السلام - الثمرة الملعونة هبطا إلى الأرض. هبطت حواء على جبل عرفات، وآدم في سرنديب (سيلان).

بحث آدم عن حواء زوجته خلال مئة وخمسين عامًا حتى وجدها على جبل عرفات(٢٩) (سمي بذلك لأنه عرفها عليه). ويقع هذا الجبل على بعد حوالي عشرة كيلو مترات شرق مكة المكرمة. وتذكر الرواية أن إبراهيم عليه السلام قدم قربانه إلى الله في منى، وفي مكة المكرمة كادت هاجر وابنها إسماعيل يموتان عطشًا لولا أن جاءهما الملك جبريل، وأمرها أن تضرب الأرض بقدمها(٣٠) ففعلت؛ فتفجر نبع غزير كاد ماؤه يغمر الأنحاء؛ فصاحت هاجر: زم زم، وأصبح ذلك /٢٢٣/اسم النبع الإعجازي الذي ما زال موجودًا حتى اليوم.

وقد توفيت أمّنا حواء في جدة، وما زال قبرها معروفًا هناك على مسافة قريبة من سور تلك المدينة من ناحية الشرق(٣١). والهدف من الحج هو التقرب إلى الله في تلك الأماكن المقدسة التي هي موضع

---

(٢٩) إن عماد هذه الروايات إسرائيليات.

(٣٠) الذي ورد في حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ "أن المَلَك بحث بجناحه، أو قال بعقبه حتى ظهر الماء".

(٣١) تحدث برتون في رحلته عن قبر خارج مدينة جدة يعرف باسم"قبر أمنا حواء" وقدم له رسمًا تصويريًا، وقال : إن المسافة بين الرأس والقدمين هي نحو ست خطوات. انظر : موسوعة مدينة جدة، عبدالقدوس الأنصاري، مج١، ط٤، القاهرة ١٩٨٢م، ص٤٧ - ٤٩؛ وكتاب التراث الشعبي في أدب الرحلات، تأليف د. أحمد عبد الرحيم نصر، الدوحة ١٩٩٥م.

تقديس منذ آلاف السنين. كان الحج قبل الإسلام في الخريف؛ ولكن النبي محمدًا ﷺ اعتمد بأمر من الله الأشهر القمرية، وجعل الحج في الأشهر الثلاثة الأخيرة من السنة الهجرية، ونتج عن ذلك أن تاريخ العيدين يتقدم ثلاثة عشر يومًا في كل سنة، وأن الحج يتم خلال ثلاثة وثلاثين عامًا في كل الفصول. ويصادف أن يحل يوم الوقوف على عرفات يوم جمعة كل سبع سنوات، وهو يوم مبارك عند المسلمين، وفي تلك السنة يشهد الحج زحامًا عظيمًا.

كنا في الماضي نرى الملوك يأتون إلى الحج. وكان الخليفة في بغداد مثلاً يخصص تسعمئة بغل لحمل خزائن ملابسه فقط. وقد حج الخليفة هارون الرشيد ثماني مرات، وحج محمد علي (باشا مصر) في عام ١٨١٤م. "لقد أصبح الحج منذ ظهور الإسلام الركن الرابع(٣٢) من أركانه /٢٢٤/، أما الثلاثة الأخرى فهي: الصلاة والزكاة وصيام رمضان. ولكن الحج واجب على من استطاع إليه سبيلا"(٣٣) . ويذهب الحجاج عند وصولهم بثياب الإحرام إلى الصلاة على قبر حواء(٣٤) في جدة، ثم يتجهون بعد ذلك إلى مكة المكرمة. ومنذ وصولهم يدخلون الحرم من باب السلام، ثم يصلون أمام مقام إبراهيم، ويتشحون بثوب الإحرام من الكتف إلى الخاصرة، ثم يطوفون سبع مرات حول الكعبة(٣٥)، وهم يتوجهون بالدعاء إلى الله، مرددين بالحرف ما يقوله مطوِّفهم(٣٦)، ثم يقبِّلون الحجر الأسود إن

---

(٣٢) الصحيح أن الحج هو الركن الخامس، والأركان الثلاثة التي ذكرها هي الثاني والثالث والرابع، أما الركن الأول فهو قاعدة الإسلام (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله) .

(٣٣) انظر كتاب بروست، الاتجاه الجديد للسياسة الصحية. (المؤلف)

(٣٤) قد تكون هذه حكاية حال رآها بعض الرحالة من بعض الحجاج، ولكنها ليست من سنن الحج بأية حال.

(٣٥) الصحيح أن الطواف هو أول شيء يفعله الداخل إلى مكة المكرمة، أما الصلاة خلف المقام فهي سنة تأتي بعده.

(٣٦) هذه حكاية حال رآها المتحدث، وإلا فالأصل هو الدعاء من كل شخص بما يستحضره بقلب حاضر، ووعي منتبه، لا مجرد ترديد دون فهم.

استطاعوا، وهو موضوع في اسطوانة من الفضة على علو قامة الرجُل عند إحدى زوايا الكعبة. ثم يخرجون بعد ذلك من الحرم لإتمام فريضة السعي(٣٧) إحياء لذكرى هاجر التي كانت تركض في الصحراء جيئة وذهابًا، وهي تكاد تموت من العطش.

ثم يدخلون الحرم من جديد لإراقة ماء زمزم على أجسادهم(٣٨)، أو إن شاؤوا الوضوء وضوءًا تامًا من الماء المبارك. أما أولئك الذين نذروا من قبلُ على أنفسهم الصلاة في (عمرة)(٣٩) التي تقع على مسافة بضعة كيلو مترات من مكة المكرمة، فإنهم يذهبون/٢٢٥/ للصلاة هناك، وذلك أمر تطوعي، غير واجب. ولما كان الحجاج يصلون عادة قبل أيام عدة من يوم عرفة، فإن باستطاعتهم الاستراحة في المدينة المقدسة عددًا من الأيام، يتفرغون فيها لشؤونهم الخاصة من بيع وشراء، كما يحلو لهم. وفي اليوم المحدد - وهو اليوم الثامن من ذي الحجة - ينطلقون في قافلة رسمية يتقدمها المحمل، إلى جبل عرفات مارين عبر منى ومزدلفة. ويخيمون في عرفات(٤٠) (إنه مشهد يأسر الألباب، كما يقول ليون روش، أن ترى آلاف الخيام على ضوء القمر، وعلى وميض النار المتأججة، (وأن تسمع) النداء عن الحجاج الضائعين، والأدعية الدينية، وأغاني الفرح الموقَّعَة على

---

(٣٧) انظر الصفحة ٦٩ (من المصدر السابق). (المؤلف)

(٣٨) شرب ماء زمزم سنة تكون بعد الطواف، لا بعد السعي، وإن كان المجال مفتوحًا لشربه في أي وقت.

(٣٩) ليس هناك مكان اسمه "عمرة"، إنما هناك مكان يقال له: التنعيم، أحرمت منه السيدة عائشة - رضي الله عنها - بالعمرة، واعتاد الناس الخروج إليه من مكة المكرمة للإحرام بالعمرة، واشتهر مسجده باسم مسجد العمرة.

(٤٠) ها هنا أمران:

الأول: أن الانطلاق إلى عرفات يوم الثامن، وهذا غير صحيح؛ فالسنة الخروج من مكة المكرمة إلى منى يوم الثامن، والانطلاق صباح يوم التاسع من منى إلى عرفات.

والثاني: أنه ضخم يوم الثامن، والصحيح أن يوميّ العيد الكبيرين هما: يوم التاسع يوم عرفة، ويوم العاشر يوم العيد.

التصفيق بالأيدي، وعلى قرع الدفوف(٤١)، والصراخ النشاز لأصحاب المقاهي، كل هذه الضجة المقرونة بالأصوات الحزينة التي تصدر عن أكثر من ٢٠ ألف جمل، وحمحمة الجياد، ونهيق الحمير، كل ذلك يؤلف سمفونية تصم لها الآذان).

إن هذا اليوم هو أكثر أيام الحج حركة، إنه يوم حبور عام، مترافق بالضجيج. أما في المساء فتطلق الألعاب النارية، وتسمع أصوات المدافع بفواصل زمنية منتظمة، والحشود كلها تغني./٢٢٦/ ("وحين ينبلج الصبح يعلن مدفع القوافل عن حلول وقت صلاة الصبح. وترتفع أصوات المؤذنين من كل الجهات، يدعون بأصواتهم الندية ذات الصدى المؤمنين إلى الصلاة.

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر تبدأ خطبة المواعظ(٤٢)، التي تستمر حتى غروب الشمس. ويلوح الخطيب كل أربع دقائق أو خمس براية خضراء، يردد المؤمنون بعدها معه "لبيك اللهم لبيك...!"، وحين تغيب الشمس من الأفق، تتحرك جموع الحجاج، وكل منهم يريد الوصول مبكرًا إلى أسفل الجبل(٤٣). حينئذ لا يمكن وصف الفوضى؛ فهناك الجرحى، والجثث التي تغص بها الطريق، تدوسها الأقدام؛ لأنه ينبغي أن يمر هذا الجمع الغفير كله في مكان محصور بين عمودين يبعد أحدهما عن الآخر ستة أمتار(٤٤).

---

(٤١) ربما يكون هذا قد حدث فعلاً، وقد كان هذا من الطقوس التي أحدثها الجاهليون قبل الإسلام، ونهى الإسلام عنها، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] أي تصفيقًا وتصفيرًا، فالمنهج الإسلامي في العبادات عامة وفي يوم عرفة على وجه الخصوص، هو الرزانة والخشوع لله، ومناجاته بالذكر والدعاء الذي ينبغي ألا يرفع فيه الصوت حتى وإن كان دعاء.

(٤٢) الخطبة تبدأ - كما هي سنة الرسول ﷺ وما زالت - بعد الزوال مباشرة، أي ما بين ١١,٤٠ و ١٢,١٠ بحسب تغير الأوقات.

(٤٣) لعله يقصد المشعر الحرام في مزدلفة، وعمومًا فمزدلفة كلها مكان للمبيت تلك الليلة وليس الجبل وحده.

(٤٤) ليس من مشاعر الحج المرور بين هذين العمودين المفترضين، فالمجال مفتوح بين عرفات ومزدلفة للنزول.

إنها النفرة العامة؛ إذ يندفع الجميع نحو هذا الممر الضيق، الرجال والنساء والأطفال مع أمتعتهم وجمالهم. وقد مات دهسًا خلال هذه النفرة في عام ١٨٩٢م ثلاثون شخصًا. والشائع بين الناس أن أول الواصلين، إذا مات وقد حقق هدفه، فإن روحه تصعد مباشرة إلى السماء، وتستقبله الحور العين في الجنة بين أحضانهن.

أما ذبح الهدي (قربان البيرم)(٤٥) (Courban- Baïram) فإن موعده /٢٢٧/ في اليوم التالي في وادي منى، إحياء لسنة إبراهيم عليه السلام(٤٦).

يولي صاحب الهدي رأسها، سواء كانت كبشًا أو عجلاً أو جملاً، باتجاه الكعبة وهو يهلل ويكبر. "وقد بلغ عدد الهدي من الخراف عام ١٨٩٣م (١٣١٠هـ) ١٢٠ ألفًا"(٤٧).

إن مدة الإقامة الرسمية في منى ثلاثة أيام، ولكن كثيرًا من الحجاج يختصرونها(٤٨)، للهرب من الروائح النتنة التي تنبعث من برك الدم المتعفنة، ومن الفضلات المتنوعة التي تمتلئ بها أرض الوادي الضيق، على الرغم من اتخاذ بعض الاحتياطات للتخفيف من نتائج هذا الذبح العظيم؛ إذ تجهز الحفر مقدمًا، أما بقايا الأضاحي المتروكة فإنها تدفن مباشرة. ولم يعد الناس يجدون الوقت لتقطيعها كما كانوا يفعلون منذ سنين. ومع أن في ذلك خطرًا عظيمًا على الصحة العامة، ومع ما ينتج عن ذلك من مخاطر، فإنه ينبغي القول في هذا الصدد: إن المصالح المتضاربة جعلت بعضهم يبالغ كل المبالغة

---

(٤٥) انظر المقالة الفرنسية الموثقة في الحاشية الرابعة من هذا البحث. والبيرم: كلمة تركية، دخلت الفرنسية في عام ١٥٣٣م، وتطلق على العيدين: الفطر والأضحى، والقربان يسمى أضحية إذا قام به غير الحاج، أما ما يذبحه الحاج فيسمى هديًا.

(٤٦) السنة ذبح الهدي بمنى، لكنه يجوز الذبح داخل الحرم كله، وليس في منى فقط.

(٤٧) الاتجاه الجديد للسياسة الصحية، بروست. (المؤلف)

(٤٨) لعل الاختصار الذي يشير إليه هو التعجل للخروج من منى يوم ١٢، وهذا جائز شرعًا للحاج، وليس اختصارًا مخلاً للهرب من الرائحة النتنة.

في تضخيم الأمور، ويبدو لي /٢٢٨/ بما لا يقبل الشك، أنه من الثابت اليوم أن الكوليرا لم تنشأ أبدًا في منى، بل يأتي بها الحجاج الهنود معهم من بلادهم التي يتفشى فيها هذا الوباء، ثم تنمو وتنتشر في منى، فتصيب الأشخاص الضعفاء الذين يقعون ضحية الفقر المدقع، والتعب المجهد في ظروف صحية سيئة، وأكرر القول: إنه من المستحيل القبول بقول من يدعي أن الكوليرا تنشأ في منى؛ وذلك بسبب التصرف الحكيم الذي يقضي بإزالة الجثث فورًا.

أما الحكايات الخرافية التي تمثل الحجاج وهم يأكلون بشراهة لحوم الهدي حتى لو كانت فاسدة، فإنها بكل بساطة ضرب من الحمق والبلاهة. لقد وصل الأمر ببعضهم إلى حد القول: إن الجوع يدفع بالحجاج إلى نبش الجثث بعد أيام عدة من دفنها. ولا يستحق هذا القول البشع إلا السخرية! ويبدو أننا نحن الفرنسيين، نقع بسذاجة في شرك المصالح البريطانية التي يهمها أن تجد هذه الأحكام المسبقة رصيدًا بين الناس، وتصر على عدم تطبيق الإجراءات الأولية للحذر، المتمثلة في مراقبة الحالة الصحية للحجاج الهنود مراقبة دقيقة، سواء من جاء منهم بحرًا، أو مع قوافل الحجاج اليمنية... ولكن ...

الحكايات الخرافية التي تمثل الحجاج وهم يأكلون بشراهة ضرب من الحمق والبلاهة

ولكن تجارة الأرز، والأقمشة القطنية /٢٢٩/ والحريرية ستتأثر إنْ هم فعلوا ذلك؛ إنهم يفضلون التجارة، ويتركوننا نحن الفرنسيين والهيئات الصحية، نتحمس لتلك المسألة الأبدية؛ مسألة الهدي في منى. وإذا كان لنا في يوم من الأيام أن نتنبه لذلك فستظهر لنا حينئذٍ مفاجآت مزعجة، تفتح عيوننا على مناورات جيراننا، ومؤامراتهم، ومطامعهم.

لندع ذلك، ولنعد إلى حجاجنا الذين يسارعون في العودة إلى مكة المكرمة بمجرد أن ينتهوا من تقديم الهدي، ويغتسلون بسرعة وهم في

طريق عودتهم إليها في بِرْكة زبيدة؛ وهي بركة مستطيلة الشكل، مطوية، تُملأ بالماء، وهي محفورة في الأرض في وادٍ ضيق (وليس في سهل فسيح كما بدا لأحد الرسامين الخياليين أن يرسم ذلك في إحدى الصحف المزينة بالرسوم)، والبِرْكة على جانب الطريق تبعد بعض المسافة عن القناة المطوية التي توصل ماء الشرب إلى مكة المكرمة. ويؤخذ الماء الذي تملأ به البِرْكة من تلك القناة(٤٩). إن عادة الاغتسال هي أيضًا عادة خطيرة بالتأكيد، بل هي أكثر خطرًا على صحة الحجاج من الروائح الكريهة التي تنبعث في منى. وإنه لمن السهولة بمكان إلغاؤها /٢٣٠/، وذلك بتركها فارغة.

وعندما يصل الحجاج إلى مكة المكرمة يسارعون بالذهاب إلى جدة، حيث تنتظرهم السفن التي ستبحر قريبًا إلى ينبع، ومنها برًا إلى المدينة المنورة. إن زيارة المدينة المنورة سُنَّة مستحبة، ويحرص كثير من الحجاج على القيام بها ....

إن في ولاية الحجاز التي تعد مكة المكرمة مركزها سلطتين: الوالي الذي يمثل السلطان، ويعتمد قناصل الدول الأجنبية. والشريف الأكبر، الذي لا يُسمح لقناصل الدول أن يقيموا معه أي علاقة مباشرة؛ ويخضع له البدو الذين هم في الوقت نفسه تحت سلطة الوالي. إن الشريف الأكبر هو شيخ مكة المكرمة، وسلطته أكبر من سلطة بقية الشيوخ، ويلقى احترامًا أكثر منهم؛ ويتم اختياره منذ ١٢ قرنًا من الأسرة نفسها(٥٠)؛ وهي من سلالة النبي ﷺ. ولا يشبه الوضع السياسي في الحجاز وضع أي بلد آخر خاضع للعثمانيين؛ فالحجازيون لا يؤدون /٢٣١/ الخدمة العسكرية، ولا يدفعون ضرائب، بل هم على العكس يتلقون مساعدات من الذهب والفضة من السلطان، ومن خديوي مصر.

---

(٤٩) التي تحمل الاسم نفسه: قناة زبيدة، عين زبيدة، وتسمى المنطقة كلها عين زبيدة، وهي تقع على طريق الحاج الكوفي.

(٥٠) قارن بما في مقالة د. صابان، ص ١٢٧.

أما شريف مكة المكرمة فيمتلك مبالغ ضخمة؛ فهو يتلقى – كما يقال – ٤٠ ألف فرنك شهريًا من الباب العالي(٥١)، وله حراس شخصيون (البيشة)(٥٢) (Les Bichas)، وهم من البدو، ينهبون قوافل الحج والتجارة، وقد نشرهم الشريف الأكبر على الطريق بين الطائف ومكة المكرمة، وله ممثل لدى السلطان، وآخر في مصر. ولا يغادر الشريف الأكبر مكة المكرمة إلا في فصل الصيف؛ إذ يذهب إلى الطائف. ويلقى احترامًا كبيرًا من الحجاج، الذين يأتون من أعماق الصين حتى أقاصي الغرب؛ فهم يرون فيه سليل النبي ﷺ، ويرون فيه زعيمًا دينيًا، وليس ذلك بصحيح؛ لأن الزعيم الديني الحقيقي هو أمير المؤمنين (السلطان)، ثم يتلوه شيخ الإسلام الذي يوكل إليه السلطان سلطاته.

ويفهم الولاة منذ وصولهم أنهم لا يستطيعون الوقوف في وجه قوة متمكنة، مثل قوة الشريف الأكبر، ولكن هذا الأخير يصبح خادمًا مطيعًا للوالي إذا كان هذا شخصًا حيويًا، وله مكانة عالية لدى السلطان، ويتمتع بمناقب شخصية؛ /٢٣٢/ لأن بإمكانه عزل الشريف، كما هو شأن عثمان باشا الوالي الحالي. ولكن الشريف اليوم يعلم أن عثمان باشا لن يظل في مكة المكرمة زمنًا طويلاً، وأنه سرعان ما يستعيد سلطاته المفقودة مؤقتًا بعد رحيله. والشريف الحالي هو سيدنا عون الرفيق(٥٣).

ويمكن القول باختصار: إن الوضع السياسي للحجاز بعيد عن أن يكون مثاليًا بتنظيمه، وبطريقة عمله. ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار الصعوبات الضخمة التي ينبغي التغلب عليها، وطبيعة الشعب،

---

(٥١) قارن بما في مقالة د. صابان، ص ١٢٨.

(٥٢) انظر المقال الفرنسي الموثق في الحاشية الرابعة من هذا البحث.

(٥٣) عون بن محمد بن عون (عون الرفيق) أصبح شريفًا بين عامي ١٢٩٩هـ – ١٣٢٣هـ، بعد وفاة الشريف عبد المطلب بن غالب، وكان قبل ذلك مقيمًا في إستانبول، وكان عمره دون الخمسين حين عين شريفًا، وفي كتاب هورخرونيه حديث عنه، وعن أحداث عصره. انظر ١/٢٩٧ – ٣٠٧ .

والمسائل المعقدة التي ينبغي إيجاد حلول لها، فإنه من الصعب وصف الدواء المناسب في الحالة الراهنة للأوضاع. إن سكة حديدية بين جدة ومكة المكرمة ستغير الأمور جذريًا، ويكثر في هذه الأيام الحديث عنها، ومن المحتمل أن تقام في يوم من الأيام، ولكن العقول المستنيرة في العالم الإسلامي تعارض معارضة شديدة إنشاء مثل هذه السكة؛ لأن حكمة الحج كلها حينئذٍ ستضيع. إذ لا يظهر الحجاج جميعًا متساوين بثيابهم البسيطة، ولا تكون هناك المشقة التي يتحملها الغني والفقير على السواء؛ لأنهما خلال فترة بسيطة يعيشان المساواة الحقيقية./٢٣٣/لقد أراد النبي ﷺ(٥٤) أن يأتي الجميع؛ الطويل والقصير، والقوي والضعيف، والعبيد والملوك، عراة الأجساد، وقد عَنَتْ جباههم للاعتراف بأنهم متساوون أمام الله. إن السكة الحديدية ستنزع عن الحج هذا الجانب الديني الرائع، وعن هذه الأخوة الإنسانية قيمتها الأخلاقية كلها، وهيبتها كلها، وتحوله إلى عادة دينية مبتذلة").

إذن، (أدريان بروست) ليس رحّالة، ولم يكتب رحلة، بل وضع كتابًا عن أوضاع الحجاج الصحية، ووجد نفسه منهجيًا، مدفوعًا إلى الحديث عن تاريخ الحج، ومناسكه، فلجأ إلى كتب الرحالة الغربيين الذين أتيح لهم بطريقة أو بأخرى أن يشهدوا موسمه الرسمي. ويوضح لنا الملحق الذي قدمنا ترجمة له طبيعة الكتاب، وعنوانه، وملابسات تأليفه. ويوضح - بما لا يقبل الشك - أن المخطوطة العثمانية الموجودة في مكتبة الملك فهد الوطنية، والتي وصفها، وتحدث عن مضمونها الدكتور سهيل صابان، هي ترجمة تلخيصية لكتاب بروست المعنون بـ: (الاتجاه الجديد للسياسة الصحية).

(أدريان بروست) ليس رحّالة، ولم يكتب رحلة، بل وضع كتاباً عن أوضاع الحجاج الصحية

---

(٥٤) ليس النبي ﷺ من أراد ذلك، وإنما هو الله سبحانه وتعالى.